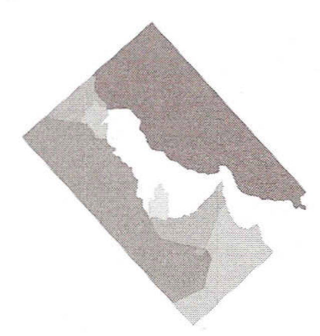

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

حواضر المغرب الإسلامي في ضوء الميثولوجيا (نماذج مختارة)



تعني الميثولوجيا الأساطير والكرامات والخرافات، وكل فكر مناقض للتفكير العقلاني. وعلى رغم دلالتها تاريخيا على بدائية الفكر إلا أنها ظلت متواجدة حتى في عصور ازدهار العلم القائم على العقل والتجريب.

وإذ ارتبطت بحياة العوام أساسا؛ إلا أنها شكلت - على سبيل المثال - لب المشروع الصهيوني الذي تمخض عن تأسيس دولة إسرائيل. وعلى رغم استناد الميثولوجيا إلى الخيال؛ فهي تنطوي على حقائق تاريخية ثاوية في طياتها؛ الأمر الذي أهلها لتكون أحد مصادر علم التاريخ. ومع أنها وليدة تفكير العوام؛ فقد عبرت عنه في لغة رامزة لها خصوصيتها. وقد اعتبرها البعض نوعا من الفلسفة البدائية تأسيسا على شمولية رؤاها. لذلك أصبحت موضوعا للبحث والدرس والاستقصاء والتحليل والاستنباط من قبل المؤرخين والفلاسفة وعلماء النص والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، باعتبارها معرفة غاية في الثراء والتعقيد، وبالغة الأهمية في دلالاتها كإبداع جمعي شعبوي عرفته المجتمعات الإنسانية طوال تاريخها(1).

د. محمود إسماعيل

أستاذ التاريخ
بجامعة عين شمس

ولأنها معرفة ثرية – على رغم بدائيتها – فقد استلهمها المبدعون في الفن والأدب؛ باعتبارها نمطا في التفكير البشـري وأنموذجا في السلوك[٢] يجمع بين المعقول واللامعقول، بين الواقع والخيال، وبين الوقائع السلوكية والمثل العليا. لذلك لم يخطئ أحد[٣] الدارسين حين اعتبر الميثولوجيا «تمثلا للذات الخالدة ودمجها في الذات الفردية». إنها – من ثم – «مزج بين السحر والواقع يحمل منطقا خاصا؛ لا مجرد عفوية خاضعة للمصادفة»[٤]؛ فهي لذلك نتيجة لفعل شعوري عبر عنه الخيال في لغة غاية في الخصوصية[٥]. وهذا الفعل ليس عاديا؛ بل هو نتاج موقف خطير واستثنائي اهتزت له المشاعر الجمعية فعبرت به عن طموحاتها بعد العجز عن تحقيقها بالتفكير العقلاني[٦]. أو هي – بعبارة أخرى – «نوع من السحر الاجتماعي يأتي استجابة لتحدي قوانين الطبيعة»[٧].

وتنطوي الميثولوجيا على بعد ديني؛ خصوصا ما تعلق بـ «الكرامة» التي هي وثيقة الارتباط بالأسطورة؛ من حيث نشأتهما معا في مناخ مجتمعي واحد، تبادلتا من خلاله آلية التأثر والتأثير. هذا فضلا عن تمحور كل منهما حول «بطل» ذي قدرات خارقة تتجاوز منطق الواقع وقوانين الزمان والمكان؛ ليحقق الحلم الجمعي وفق إرادته المطلقة[٨]. كما اشتركتا معا في الطابع الخيالي واللغة الرامزة المقنعة.

كما عبرت الميثولوجيا عن التاريخ الإنساني في مراحله البدائية والمتطورة في آن؛ إلى حد اعتبارها هي التاريخ بعينه في مخيال الشعوب.

لذلك – وغيره – انصب اهتمام الدارسين على الميثولوجيا التي لم تعد – كما يتصور البعض – محض «أفكار مهوشة أو شيء ممسوخ»[٩]؛ بل غدت «كنزا معرفيا» جرى استكشاف مغاليقه باعتماد مناهج بحث متنوعة على المستويين النظري والتطبيقي؛

بهدف الوصول إلى معارف متنوعة وثرية قد لا نجد لبعضها نظيرا في المدونات التاريخية؛ خصوصا إذا ما قاربها الدارسون باعتبارها نسقا فكريا شديد الخصوصية له منطقه الخاص أيضا.

ولعل ذلك يفسر مقاربة علماء النفس المهمومين باستبطان الميثولوجيا سواء في مضامينها المعرفية، أو في تحليل رموزها واستكناه دلالاتها[١٠]. وفي هذا الصدد أبدع «فرويد» ومدرسته دراسات غاية في الجدة والأهمية. كما تنوعت نظريات اللغويين والأنثروبولوجيين، ووظف المنهج التجريبي في هذا الصدد، بما أسفر عن معارف مبتكرة جرى اكتشافها. ولم يتقاعس نقاد الأدب والفن عن تفسير ما يتضمنه الإبداع في هذا المجال من رموز موحية تنطق بدلالات كانت غائبة. ولا مشاحة في اعتماد الميثولوجيا في الكثير من المنظومات الفلسفية المثالية حتى خلال عصر الأنوار.

ومن أسف؛ أن المؤرخين تخلفوا عن نظرائهم في المجالات المعرفية الأخرى؛ في الإفادة من الميثولوجيا في دراسة التاريخ. فقد اعتبرها البعض «بضاعة فجة» أسهمت في تشويه التاريخ بعد اختلاط الوقائع بالأساطير، والأنكى اعتماد البعض الآخر تلك الروايات الأسطورية كحقائق تاريخية في حد ذاتها، خصوصا دارسي التاريخ الإسلامي الزاخر بالأساطير والكرامات والخرافات ونحوها.

من هنا تتصدى الدراسة لمعالجة موضوعها؛ مستهدفة عدة غايات نوجزها في الآتي:

أولا: إثبات اعتبار الميثولوجيا مصدرا تاريخيا بكرا يمكن التعويل عليه، بعد الفحص والنقد والتثمين، استرشادا بتجارب الأنثروبولوجيين وعلماء النفس والاجتماع في هذا الصدد.

ثانيا: محاولة تطبيق المنهج التاريخي المقارن في دراسة الميثولوجيا من خلال الوقوف على تاريخيتها، وذلك بالكشف عن الواقع الذي أفرزها؛ بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ثالثا: الكشف عن الكثير مما «سكت عنه» المؤرخون الرسميون - لأسباب متعددة - من خلال ما حوته ذاكرة الشعوب من مأثورات عرضت للكثير من الوقائع «المغيبة» ولو بطريقة غيبية.

رابعا: إثبات مشروعية مقاربتنا تلك عن طريق اختيار بعض النماذج الخاصة باختطاط بعض الحواضر الإسلامية في بلاد المغرب خلال القرن الثاني الهجري.

وقبل المضي قدما في الدراسة؛ نشير إلى رسوخ الميثولوجيا في بلاد المغرب، في العصور الإسلامية عموما والمتأخرة على وجه الخصوص؛ حيث انتشر التصوف لتصبح الطرقية «دينا شعبيا» إن جاز التعبير. كما شاعت الكرامات والشعوذة والسحر إلى حد اعتبارها علما من العلوم عرف باسم «علوم السحر والطلسمات» عند ابن خلدون الذي سلم بها كحقائق عيانية. لذلك تصدى لتقنين تلك الظاهرة وتعقيدها، معرفا بنشأتها وأسباب انتشارها؛ بل وبفعاليتها في التاريخ؛ «فهي تؤثر في الأكوان باستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية او شيطانية»؛ وفق قوله[11]. بل اعتبر الاعتقاد بهذا التأثير «لا مرية فيه بين العقلاء»[12].

وحكم ابن خلدون المدهش هذا لا غرابة فيه خلال عصر أُطلق عليه «عصر الانحطاط»، لغياب العقل أمام جبروت النقل، بل وجد من عقلانيي الغرب من اعتقد الاعتقاد ذاته؛ فقد آمن «ميكيافيللي» بأن «المنجمين وقراء الطالع استطاعوا التنبؤ بالكوارث الكبرى قبل حدوثها»[13]. واعتبر بعض فلاسفة عصر الأنوار الأسطورة «تمثيلا للفلسفة في أكمل صورها»[14].

أما عن الإيمان بالكرامات عند مغاربة العصور الوسطى؛ فكان أشد رسوخا؛ تأسيسا على ثقل البعد الديني في تضاعيفها. لذلك اعتقدوا بقدرتها في جلب الخير والقضاء على الشر[١٥]. من هنا توجه الاستشراق الفرنسي إلى الاهتمام بالمأثور الشعبي المغربي عموما والميثولوجيا خصوصا لفهم أعمق لقسمات الشخصانية المغربية.

الميثولوجيا في المغرب الإسلامي

وما يعنينا من تلك التقدمة هو الانطلاق منها لرصد وتحليل الأساطير والكرامات والخرافات التي نسجها المخيال الشعبي حول اختطاط بعض الحواضر المغربية؛ بهدف إبراز أهميتها المعرفية عموما وقيمتها في حقل البحث التاريخي على وجه خاص.

وما نؤكده أن تلك الحقيقة تنسحب على تأسيس الكثير من مدن الشرق الإسلامي أيضا. بل لا يخالجنا شك في تأثر المخيال المغربي بنظيره المشرقي في هذا الصدد؛ كما ستثبت الدراسة.

وإذ استندت ظاهرة تأسيس المدن الكبرى في الإسلام إلى مقومات عروبية موروثة عن عصور ما قبل الإسلام، وأخرى إسلامية، وثالثة موروثة عن التقاليد الهللينستية[١٦]؛ فقد انطوت ميثولوجيا اختطاط المدن على تلك المعطيات بصورة جلية.

وإذ جرى اختطاط تلك المدن وفق توافر شروط محددة - كصلاحية المكان للعمران وتوافر المياه والحماية الطبيعية - فقد عكست الميثولوجيا تلك الشروط عينها. ولا غرو، فقد أسهم المنجمون وقراء الطالع في اختيار أماكن الاختطاط حسب ما تنبئ به النجوم عن المستقبل السعيد لسكان المكان.

لذلك أخطأ ابن خلدون حين وصم العرب - كعادته - بالجهل والغفلة عن مراعاة تلك الشروط[١٧]؛ اللهم إلا تحقيق عامل الأمان. صحيح أن العرب اختطوا الأمصار الأولى لأغراض عسكرية؛ لكن مدنا أخرى كثيرة جرى تأسيسها لأسباب سياسية وأغراض اقتصادية[١٨].

وفي بلاد المغرب - كما هي الحال في المشرق - جرى العرف على تأسيس حواضر جديدة بتأسيس دول مستحدثة. وسنركز في دراستنا على مدن ثلاث جرى اختطاطها لهذا الغرض؛ وهي سجلماسة التي أسست عام ١٤٠هـ لتكون عاصمة دولة بني مدرار، وتاهرت التي جرى اختطاطها عام ١٦١هـ لتكون حاضرة دولة بني رستم، وفاس عاصمة الدولة الإدريسية التي اختلف الدارسون حول تاريخ بنائها.

لقد أسس المدن الثلاث حكام وفدوا من الشرق أو من بلاد السودان، لتكون حواضر لدول معارضة للخلافة العباسية، إحداها - دولة الأدارسة - شيعية المذهب، والثانية - دولة بني مدرار - الخارجية الصفرية، والثالثة - دولة بني رستم - الخارجية الإباضية.

لذلك سنلاحظ تأثر الأساطير والكرامات التي نسجت حولها بالبعد الديني المذهبي. على رغم ذلك نهلت تلك الأساطير والكرامات من نظيرتها الخاصة باختطاط بغداد، بما يشي بوحدة الحضارة الإسلامية؛ على رغم الحزازات المذهبية والصراع السياسي. كما تأثر بعضها بكرامات الفاتح الورع - عقبة بن نافع - حين أسس «القيروان»؛ بما يدل على رسوخ الطابع الإسلامي العام في اختطاط المدن وازدهار العمران؛ باعتبار الإسلام دين بناء وعمران؛ على رغم الاختلافات العرقية والمذهبية والإقليمية.

ولم يحل ذاك المشترك الأعظم؛ دون بروز بصمات الطابع المغربي الأمازيغي في اختطاط المدن الثلاث[١٩]، تحقيقا لما اتسمت به الحضارة الإسلامية من خصيصة «التنوع في إطار الوحدة»[٢٠].

والسؤال المهم: هو إلى أي حد عبرت الميثولوجيا التي نسجت حول اختطاط المدن المغربية الثلاث عن تلك الحقائق؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبارها مصدرا تاريخيا بالغ الأهمية؟

بخصوص تأسيس مدينة «سجلماسة» التي اختُطت عام ١٤٠هـ، لتكون حاضرة دولة بني مدرار الخارجية الصفرية: اختلف المؤرخون حول مؤسسها[٢١]. وعكست الأساطير هذا الاختلاف؛ فثمة رواية أسطورية تؤكد قِدَمَ المدينة؛ إذ قيل إن مؤسسها هو «الإسكندر ذو القرنين»؛ ويقصد به الإسكندر الأكبر المقدوني[٢٢]. وتشي الرواية بعدة حقائق هي:

أولا: قدم تأسيس المدينة؛ بمعنى أن المدراريين أعادوا عمرانها بعد أن درست، وأطلقوا عليها اسمها القديم.

ثانيا: التأثر بالبعد الديني الإسلامي، حيث أسبغوا صفة «ذو القرنين» الذي ورد ذكره في القرآن الكريم على شخص الإسكندر الأكبر.

ثالثا: تأثير المعطيات الأسطورية الموروثة عن العصور القديمة في نظيرتها إبان العصر الإسلامي؛ بما يشي بتأثير مماثل لأنموذج المدينة اليونانية - الرومانية في اختطاط المدينة الإسلامية.

رابعا: أثبتت دراسات «ماك كوك» أن المقصود بذي القرنين هو أحد قواد الرومان «دوميتيوس الإسكندر» الثائر على الإمبراطور «ماكسينتيوس» - إبان الوجود الروماني في المغرب، والذي هرب بعد هزيمته إلى واحة «تافيللت» - حيث يوجد موضع سجلماسة - في المغرب الأقصى واعتصم بها حتى لا يقع في أسر خصومه.

خامسا: ثمة اجتهاد آخر يرى صاحبه أن الأسطورة تدل على تسرب التأثير الحضاري اليوناني إلى بلاد المغرب، بعد فتح مصر على يد الإسكندر الأكبر المقدوني، وبعد زيارته معبد «آمون – رع» في واحة «سيوه»، ذلك الإله المصري الذي رمز له بـ «الكبش». ومعلوم أن عبادة الكبش وجدت في بلاد المغرب آنذاك. وهنا ربطت الأسطورة بين شخص الإسكندر المقدوني وعبادة الكبش؛ فاستعارت من الكبش قرنيه وأسبغته على صورة الإسكندر؛ تأثرا بذي القرنين الذي ورد ذكره في القرآن الكريم .

ولا تخلو الأسطورة من ظلال الحقيقة التاريخية التي تثبت تأثير النشاط الفلاحي بمصر على نظيره في واحة تافيللت بالمغرب الأقصى؛ حيث عرف سكانها باسم «الحراثين» الذين ظلوا يمارسون حرفة الفلاحة في العصر الإسلامي وفق الخبرات المصرية في هذا الصدد(٢٣). ذكر ابن حوقل أنهم «كانوا يزرعون حسب زروع مصر».

مدينة سجلماسة

وثمة رواية أسطورية أخرى تعزو تأسيس سجلماسة القديمة إلى ضابط روماني؛ وهو الذي أطلق عليها اسمها: Sigillummesse.

وتدل وقائع التاريخ على الوجود الروماني في تلك المنطقة؛ حيث تشير إلى حملة قادها «بولينيوس» عام ١٤م وصلت إلى المغرب الأقصى، ونجحت في تأسيس ولاية «موريطانيا» الرومانية. كما أثبت البحث الأثري وجود أطلال مدينة رومانية في المكان الذي أسس فيه المدراريون مدينة سجلماسة عام ١٤٠هـ(٢٤).

ومهما كان الأمر، تثبت الأسطورتان مدى التأثير الهللينستي في عمران سجلماسة[٢٥]، وتلك حقيقة تنسحب على تأسيس الكثير من الحواضر الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء.

كما تثبتان بالمثل حقيقة اعتصام الثائرين بواحة تافيللت في العصر الروماني؛ كذا في العصر الإسلامي. وحسبنا أن الخوارج بعد إخفاق ثوراتهم في الشرق نزحوا إلى المغرب، حيث نشروا دعوتهم وقاموا بعدة ثورات ناجحة ضد الخلافة الأموية، ومن بعدها العباسية؛ ثم توجوا هذا النجاح بتأسيس كيانات سياسية مستقلة في أقاليم المغرب القصية، وهم في مأمن من خطر الخلافة الشرقية.

وثمة رواية أخرى تنسب مؤسس سجلماسة إلى ربض الأندلس الذين ثاروا في عهد الحكم بن هشام، وطردهم من البلاد؛ فاستقرت جموع منهم في المغرب الأقصى.

وإذا كانت تلك الرواية تنطوي على خطأ تاريخي؛ نظرا إلى تأسيس سجلماسة قبل اندلاع ثورة الربض في الأندلس التي قامت عام ١٩٨هـ، فإنها لا تخلو من دلالة على دور هؤلاء الحرفيين الأندلسيين - الذين استقروا في سجلماسة بعد تأسيسها - في ازدياد عمران المدينة؛ وهو أمر أكدته الدراسات التاريخية الحديثة[٢٦].

ومن تلك الروايات الأسطورية عن اختطاط سجلماسة؛ رواية تعزو فضل تأسيسها إلى زنجي من بلاد السودان يسمى «عيسى بن يزيد الأسود».

وقد أخطأ الدارسون حين نسبوه إلى أهل ربض الأندلس، كذا حين اعتبروه نصرانيا[٢٧]، أو يهوديا. والصواب - فيما نرى - أنه كان من «موالي العرب» - وفق ابن خلدون - الذين جلبهم تجار الرقيق من بلاد السودان الغربي، واعتنقوا الإسلام على المذهب الخارجي الصفري. إذ من غير المعقول أن يعينه صفرية المغرب الأقصى إماما لدولتهم الجديدة ما لم يكن على مذهبهم. بل ما كان له أن

يتولاها دون عصبية قوية من بني جلدته، بدليل أن تنحيه عن الإمامة حدث بعد قدوم عصبية جديدة من مكناسة تمكنت من عزله وتولية زعيمها أبو القاسم سمكو بن واسول(٢٨).

خلاصة القول أنه على رغم اختلاف الروايات الأسطورية عن اختطاط سجلماسة؛ إلا أنها جميعا تنطوي على قدر من الحقائق التاريخية؛ كالتأثر بمعطيات هللينستية في عمران المدن؛ واشتراك عناصر شتى جمعها المذهب الخارجي الصفري في بناء المدينة، وبروز البعد الديني - اليهودي والنصراني والإسلامي - كمشترك أعظم في نسج تلك الأساطير؛ بما يزكي قيمتها كمصدر تاريخي كان مهملا من قبل الدارسين.

مدينة تاهرت

أما عن اختطاط مدينة «تاهرت»؛ فقد حدث عام ١٦١هـ، لتكون حاضرة لدولة بني رستم الإباضية التي أسسها عبدالرحمن بن رستم الفارسي. وقد نسجت الأساطير حول المدينة؛ شأنها شأن مدن مغربية أخرى. منها ما يتعلق بشخص مؤسسها بهدف إبراز سمو مكانته؛ فجعلته ينتسب إلى ملوك الفرس القدامى، على رغم كونه من موالي العرب.

ويستشف من الأسطورة تبرير زعامته لدولة كان معظم سكانها من البربر، فضلا عن اعتناقه مذهب الخوارج الإباضية، بينما كان رجل الفرس - بعد إسلامهم - من الشيعة.

تكشف الأسطورة أيضا عن حقيقة وفود الفرس إلى بلاد المغرب بأعداد كبيرة؛ حيث أسهموا بدور كبير في عمران البلاد وتأسيس المدن وأعمال الري والسقاية، فضلا عن خبرات عالية في أمور الحكم والإدارة.

وفي هذا الصدد نسجت أسطورة أخرى؛ وهي تتمثل في نبوءة بأن أحد الفرس سيؤسس دولة في بلاد المغرب ينتهج مؤسسها سياسة إسلامية عادلة؛ مدللة على ذلك بأحاديث نبوية منتحلة[٢٩].

وعندنا أن الأسطورة نسجها الخوارج الإباضية الذين برعوا في علم النجامة، وغصت كتاباتهم بالأساطير والكرامات[٣٠].

كما عرضت أسطورة أخرى لأهمية الموضع الذي أسست فيه تاهرت، وكيف كان «جيد الهواء كثير الماء»، بحيث نمت فيه الأحراج والغابات التي سكنتها الحيوانات الضارية، وكيف ناداها ابن رستم بمغادرة المكان خلال أيام ثلاثة؛ فاستجابت له، وخرجت تحمل صغارها في أفواهها[٣١].

وعندنا أن الأسطورة مقتبسة من أسطورة تأسيس القيروان على يد عقبة بن نافع. وإذ نعلم أن الفرس قاموا بالدور الأكبر في بنائها؛ وأنهم اضطلعوا أيضا ببناء تاهرت؛ لذلك لم يجدوا غضاضة في اقتباس الأسطورة.

وإذ فسر بعض الباحثين مغادرة الحيوانات للآجام والأحراج بإضرام النيران بها[٣٢]، يذهب البعض الآخر إلى تطبيق الخبرات الفارسية؛ وذلك بوضع مواد كيميائية منفرة جعلت الحيوانات تسرع بمغادرة المكان.

من هنا يمكن أيضا تفسير الظاهرة بما عرف عن الإباضية من الاعتقاد بالكرامات التي حاولوا إضفاءها على ابن رستم[٣٣].

وتنطلق إحدى الكرامات الأخرى من الدين؛ فتصور اختطاط ابن رستم المسجد الجامع؛ حيث سمع زئير أسد مفترس تمكن من استحضاره وقتله؛ متنبئا – لذلك – بأن «هذا البلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا». والحقيقة أن سفك الدماء جرى نتيجة إغارة بربر من قبيلة صنهاجة على البنائين؛ فكانوا يهدمون بالليل ما يبنى بالنهار؛ الأمر الذي أفضى إلى قتالهم وإجلائهم عن المكان.

كما تقدم النبوءة تبريرا لما حدث في تاهرت بعد موت عبدالرحمن بن رستم من صراعات دامية؛ قبلية، ومذهبية، وعنصرية.

خلاصة القول أن ميثولوجيا تأسيس تاهرت تنطوي على الكثير من حقائق التاريخ.

مدينة فاس

أما عن تأسيس مدينة فاس؛ فثمة مشكلة بصدد مؤسسها؛ إذ ذكرت معظم المصادر - وكلها متأخرة - أنها أسست في عهد إدريس الثاني، بينما استطاع «بروفنسال» أن يثبت تأسيسها في عهد إدريس الأول. وقد أخذنا بنظريته التي دلل عليها بأدلة مادية - كالعملة - وقرائن منطقية، ودعمناها ببراهين جديدة في دراسات سابقة. كما أضاف أحد تلامذتنا النجباء قرائن أخرى(٣٤).

وما يعنينا أن أساطير عديدة نسجت حول تأسيس حاضرة الأدارسة؟ تدور حول تمجيد فاس ومؤسسها؛ معظمها كرامات مستوحاة من حقائق التاريخ، وبعضها مقتبس من الأساطير الخاصة باختطاط بغداد(٣٥). هذا فضلا عن نبوءات ذات أصول يهودية ونصرانية وإسلامية منها أن أحد رهبان النصارى تنبأ بأن رجلا من آل البيت يسمى إدريس سيؤسس مدينة مباركة لتكون حاضرة ملكه في موضع اختطاط فاس(٣٦). ومنها أيضا أن مكان تأسيس فاس كان مملوكا لقوم من قبيلة زواغة يعرفون باسم «بنو الخير»، الأمر الذي جعل إدريس يتفاءل بتأسيس حاضرته في عين المكان(٣٧).

ونلاحظ أن النبوءة الأولى لم تحدد المقصود بالمؤسس إدريس؛ هل هو الأول أم الثاني؛ بما يشير إلى الإشكالية التي اختلف الدارسون بصددها، بينما تشي

الثانية بتفاؤل المؤسس الذي يظن أنه إدريس الأول الذي لم يجد الأمان في الشرق من جراء اضطهاد العباسيين للعلويين.

أما عن سبب تسمية الحاضرة الجديدة باسم «فاس»؛ فقد دارت حوله أساطير مختلفة ومتعددة، وكلها توصي بحقائق تاريخية بعضها جديد. منها أن الراهب النصراني أخبر إدريس بأن الموضع المختار لتأسيس الحاضرة كان به مدينة قديمة درست واندثرت تسمى «ساف»؛ فقلب إدريس الاسم إلى «فاس» وجعله اسم مدينته[٣٨]. ومنها أن إدريس قد شارك في تأسيس المدينة بنفسه فكان يحفر أساسها بفأس من ذهب وفضة[٣٩]. ومنها أن إدريس بعد بناء المدينة أشار إلى أنه سيطلق عليها اسم أول قادم يمر عليها وكان اسمه «فارس» فنطق الاسم «فاس» لأنه كان ألثغ، فسمى الحاضرة «فاس».

وتنطوي الأساطير السابقة على الكثير من حقائق التاريخ الثاوية بين طواياها؛ نوجزها فيما يلي:

أولا: أن إشارة الراهب النصراني إلى مدينة «ساف» القديمة تعني أن المكان كان معمورا من قبل، حيث فحص سايس المعروف بوفرة مياهه؛ بما حفز إدريس إلى اختياره موضعا لحاضرته بعد جهود استكشافية مضنية.

ثانيا: إن كون الراهب نصرانيا استوطن الإقليم يتسق مع ما أثبتته دراسات كثير من المستشرقين عن وجود نصراني مكثف على رغم فتحه على يد موسى بن نصير، واعتناق سكان من البربر الإسلام. ويرى أحدهم أن بعض العقائد المسيحية اختلطت بالإسلام في هذه النواحي بدرجة تصل إلى حد الهرطقة[٤٠]. ولعل هذا يفسر جهود إدريس الأول في محاولات نشر الإسلام الصحيح بين بربر الإقليم بعد أن جند جيوشه من أجل «الجهاد».

ثالثا: إن كون فأس المؤسس مصنوعا من ذهب وفضة مؤشر إلى تجارة المغاربة مع بلاد السودان الغربي، حيث كانوا يحصلون منها على الذهب والرقيق الأسود. كذا إلى ثراء المغرب الأقصى بمناجم الفضة.

رابعا: يشي اسم القادم إلى المدينة الجديدة، وهو «فارس»، بدور الفرس في بناء فاس لكونهم أصحاب مهارة في شؤون العمران، حيث سبق أن شاركوا في بناء «تاكروان» و«القيروان» و«تاهرت».

ثمة أسطورة أخرى - راجت في القرن السابع الهجري - فحواها أن رجلا من اليهود كان يحتفر أساس بيته في موضع فاس؛ فوجد دمية رخاما على صورة جارية منقوش على صدرها بالقلم المسند عبارة «هذا موضع حمام عمره ألف سنة ثم خرب، فأقيم موضعه بيعة للعبادة»[٤١].

وعندنا أن الأسطورة تشي بعدة حقائق نجملها في الآتي:

أولا: تأكيد البعد الديني في الأسطورة كدعامة مهمة من دعائمها.

ثانيا: وجود اليهود بالإقليم؛ نظرا إلى ثرائه بمعدن الفضة وكونه متصلا بالسودان الغربي، حيث معدن الذهب الذي كان يحصل البحار المغاربة عليه بتبادل كيل من التبر بمثله من الملح؛ كما هو معروف في المصادر التاريخية.

ثالثا: تنم الإشارة إلى الخط المسند عن الأصول العربية للأدارسة، وعن استقرار القبائل العربية في الإقليم بعد فتحه، ووفود أخرى للاستقرار بالإقليم بعد تأسيس دولة الأدارسة؛ سواء من أفريقية أو من الشرق أو من الأندلس؛ كما هو معروف.

رابعا: وجود معبد يهودي منذ القدم يشي بقدسية المكان الذي وُجد به أيضا دير للرهبان، والذي أسس فيه الأدارسة فاس التي أصبحت حاضرة المغرب الدينية والثقافية؛ حتى الوقت الحاضر.

وثمة أسطورة أخيرة تذكر أن المكان كان غابة برية يقطن بها عبد أسود يسمى «علون»، كان يقطع الطريق على المارة، فضلا عن الوحوش الضارية.. وأن إدريس تمكن من القبض عليه وقتله وصلبه على شجرة[٤٢].

وعندنا أن الأسطورة تغص بالعديد من الحقائق التاريخية التي نجملها فيما يلي:

أولا: أن كون المكان موضعا لغابة كثيفة تسكنها الوحوش، نغمة مشتركة في الأساطير التي نسجت حول المدن المغربية، ودلالة على تعاظم ظاهرة العمران الديني في بلاد المغرب بعد استقلالها عن الخلافة العباسية.

ثانيا: وجود الغابة يؤكد أيضا توافر الحياة كشرط أساسي في اختيار مواضع المدن الإسلامية.

ثالثا: تشير مسألة «العبد الأسود» إلى حقيقة وجود عناصر سودانية وفدت إلى بلاد المغرب نتيجة الصلات التجارية المشار إليها سلفا.

رابعا: يفهم من معظم الأساطير السابقة أن فحص «سايس» الخصيب استوطنته جموع من المسلمين العرب والبربر، فضلا عن اليهود والنصارى والوثنيين السود. وأن الصراع بينها كان ضاريا حتى تأسيس فاس، حيث تعايشت في سلام بفضل سياسة التسامح التي درج عليها الأدارسة[٤٣].

خامسا: غلبة الطابع الديني في معظم الميثولوجيا المتصلة ببناء فاس يتسق مع كون الأدارسة من «آل البيت»، من ناحية ومكانة فاس الدينية المتميزة من ناحية أخرى كما أسلفنا القول.

وليس أدل على ذلك من أن إدريس خطب في المسجد الجامع بفاس بعد اكتمال عمرانها؛ فقال:

«اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة؛ وإنما أردت ببنائهـا أن تعبد بها، ويُتلى بهـا كتابك، وتقام بها حدودك. اللهم وفق سـكانها وقطانهـا للخير وأعنهم عليه، واكفهم مؤونة أعدائهم، وأدر عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق؛ إنك على كل شيء قدير»[٤٤].

خلاصة القول أن الميثولوجيا تعد بمنزلة مصدر مهم لدراسـة التاريخ، بل هي التاريخ المعبر عن الوجدان الجمعي بانكساراته وطموحاته.

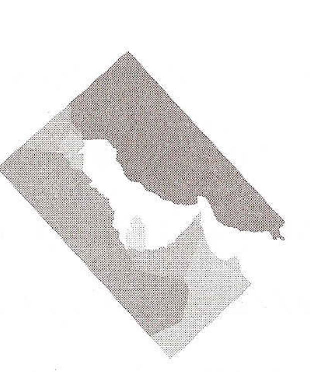
الببليوغرافيا والتوثيق

١ كاسيرر: إرنست: الدولة والأسطورة، الترجمة العربية، ص ١٨، ١٩، القاهرة ١٩٧٥.
٢ Eliade; M: Mythes, reves et mysteres, P.18, Paris 1957.
٣ انظر: مصطفى زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص ٦٢، بيروت ١٩٨٤.
٤ كاسيرر: المرجع السابق، ص ٣٧٢.
٥ المرجع نفسه والصفحة.
٦ نفسه، ص ٣٧٠.
٧ نفسه، ص ٣٧٣.
٨ مصطفى زيعور: المرجع السابق، ص ٦١.
٩ كاسيرر: المرجع السابع، ص ٢٤٤.
١٠ مصطفى زيعور: المرجع السابق، ص ٢٨.
١١ ابن خلدون: المقدمة، ص ٧٩٤، القاهرة، د.ت.
١٢ نفسه، ص ٤٩٨.
١٣ كاسيرر: المرجع السابق، ص ٢١٤، ٢١٥.
١٤ نفسه، ص ٢٤٥.
١٥ بل: ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، الترجمة العربية ص ٣٨٠، بنغازي ١٩٦٩.
١٦ راجع: محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ١٧٢ وما بعدها، الكويت ١٩٩٠.
١٧ يقول في هذا الصدد: «... وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيره، كما فعل العرب»، المقدمة، ص ٣٣٧.
١٨ لمزيد من المعلومات في هذا الصدد؛ راجع: محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٧٣.
١٩ محمد حباني: خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة، رسالة ماجستير، ص ٧٢، فاس ١٩٨٧، مخطوطة.
٢٠ محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ٤٨ - ٥٠.
٢١ محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص ١١٢ وما بعدها، الدار البيضاء ١٩٧٦.
٢٢ ماك كوك: الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، ص ٣٤، ٤٤، الدار البيضاء، د.ت.
٢٣ ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٦٥، لندن ١٩٧٣.
٢٤ ماك كوك: المرجع السابق، ص ٣٧ - ٣٩.
٢٥ محمد حباني: المرجع السابق، ص ٢٦٨.
٢٦ محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١١٤.
٢٧ ماك كوك: المرجع السابق، ص ٢٢، ٢٣.
٢٨ محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١١٦ ١١٧.
٢٩ انظر: أبوزكريا: كتاب السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢، ٥، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٠٣٠ ح.
٣٠ محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور التكوين، ص ٢٥٥، القاهرة ٢٠٠٠.
٣١ البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٦٨، بغداد ١٩٥٧.
٣٢ انظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، جـ ٢، ص ٢٩٧، الإسكندرية ١٩٧٩.
٣٣ محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١١٥، فاس ١٩٧٧.
٣٤ انظر: محمد حباني: المرجع السابق، ص ٢٦٧.
٣٥ من هذه الأساطير، أن طبيبا نصرانيا أشار على الخليفة المنصور باختيار موضع بغداد، حيث أورد نبوءات بأن المكان سيكون حاضرة لدولة كبرى تتوارثها أسرة حاكمة لسنين طويلة.
انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ ٥، ص ٥٥٨، القاهرة ١٩٦٩.
٣٦ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٢٩، ٣٠، الرباط ١٩٧٣.

٣٧ نفسه، ص ٣٠.
٣٨ نفسه، ص ٣٧.
٣٩ نفسه، ص ٤٥.
٤٠ انظر: Marcy; G: Les Dieux des Abadites et des Bourgata, Hisparis, To. xxll, p.33, Paris 1960.
٤١ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٨.
٤٢ نفسه، ص ٣٩.
٤٣ نفسه، ص ٣١.
٤٤ نفسه، ص ٤٩.



Islamic Maghreb Cities in Light of Mythology-samples



Mythology concerns the legends, charisma and legends as well any intellect contrary to reasoning, but although this moves historically contrary to the primitive intellect, it remaine٢d in effect even during the ages of science that rest on reason and experiment.

Though associated with life of the masses, they formed -for example- the crux of the Zionist project, which ended up in the establishment of State of Israel. Though resting on imagination, they involve historic facts that qualify them to be one of the sources of history. Though generated by the thoughts of the masses, it expressed that thought in a signifying language that has its own peculiarity. Some considered that part of the primitive philosophy based on its comprehensive outlook. This is why it became a subject for research, study, investigation, analysis and deduction by the historians, philosophers, textual scientists, ethnology and anthropology, for being a very rich and complicated knowledge besides its utmost importance for signifying collective popular creativity known by the humanitarian societies throughout its history.

By:
Dr. Mahmoud Ismail

The affluent knowledge -though primitive- inherent in mythology, was center of inspiration for the creative artist. They considered mythology a mode of human thought and a behavioral pattern that groups the rational and irrational, reality and fantasy as well as behaviors and ideals. Consequently a researcher was not wrong when he considered mythology "a pattern after the eternal self and its merger with the personal self". Therefore it is "a mix of magic and reality with a peculiar logic but not spontaneous and subject to accident. This is not a normal action, but product of a dangerous and extraordinary position that shook the collective feelings and demonstrated the aspirations after failure in realizing them through rational thinking." In other words mythology is "a pattern of social charm which responds to the challenges of the laws of nature."

Mythology involves a religious perspective, in particular "dignity" which is closely associated with the legend. Both mythology and legend originated from the same social environment and exchanged same stimulation and impact. Both hinge on a "hero" of exceptional abilities that surpass rationality as well as the rules of time and place, with the aim of realizing the collective dream according to his absolute will. Also the mythology and legend share the fanciful pattern and the persuasive symbolic language.

Belief the people of Maghreb during the medieval ages in "charisma" was deeper, based on the weight of the religious dimension. They

believed that in charisma (karamat in Arabic) would generate welfare and exterminate evil. This is why the French orients applied concern to the folklore of Maghreb in general and mythology in particular, aiming at a profound understanding for the dimensions of the personality of the people of the region.

This introduction is needed to allow us to observe and analyze the legends, charisma (karamat) and the fable spin by the popular fancy on city planning and to underline the importance of knowledge in general and for conducting historic research in particular.

We confirm that this fact applies also to most of the orient's Islamic states. No doubt the Maghreb fancy affected its orient counterpart, as proven by the research.

Though planning of the major Islamic cities hinged on pan-Arab constituents that go back to the pre-Islamic era, others derived from Islamic jurisprudence and third the Hellenistic traditions. The planning of cities mythology rested clearly on these prerogatives.

In the Maghreb states -the same as the orient states- the tradition was to establish new cities by establishing innovated cities. We will focus in our study on three cities planned for this purpose. These are Saglamasa planned in the year 140 as the capital of Bani Midrar, Tahert planned to be the city of Bani Rustom state and Fez the capital of the Idrisi state which the researchers differed on the date of its construction.

The three cities were established by rulers, who converged from the orient or from the Sudan, to be cities for states that oppose the Abbsid Caliphate. Idrisi state was Shiite, Basni Midrar state was Safari, Bani Rustom was Ibadi.

We will notice that the legends and charisma (karamat) spun about them, were influenced by the religious dimension. But despite all that the legends and charisma derived from its counterpart that concern the planning of Baghdad. This proves the unity of the Islamic civilization, despite the sectarian differences and political conflict. Some wrrɛe also influenced by the charisma of the pious Uqba bin Nafe, who established the city of Al-Qairawan. This proves the generally deep impact of the Islamic features on the planning of cities and prosperity of urbanism, because Islam is a religion of construction despite the ethnic, sectarian and territorial differences.